Coptology

حوارات في تدبير المبتدئين

(٧)

المحبة الواحدة التي لا تنقسم

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

كانت البداية هي كلمات الرب يسوع في (يوحنا ص ١٧). ختم الربُّ الاستعلانات بقوله: "وعرَّفتهم اسمك وسأعرِّفهم"، فقد عرَّفنا بالآب، الاسم الخاص الذي شرح لنا معنى الاسم القديم: "يهوه": "أنا الكائن"، أو "أنا الذي سأكون"، أنا الكائن الآب؛ لأن الابن معكم وقائم بينكم. وأكمل الربُّ تسليم الحياة الجديدة: "وسأُعرِّفهم (بك أيها الآب)، والسبب: "ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم (بذات المحبة)" (١٧: ٢٦). لكي يكون فينا الربُّ نفسه، فهو كما قال: بالمحبة، أي بذات محبة الآب، لأن المحبة لا تنقسم، وقد سبق وقال الرب: "أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد" (١٧: ٢٣). فمحبة الآب، كما قال الرب نفسه: "أحببتهم كما أحببتني" (١٧: ٢٣) تعني أنه لا توجد سوى محبة واحدة مستعلَنة في الابن وتُوهَب بالروح القدس (رو ٥: ٥).

سألني: ما هو أساس المسيحية، أو أساس الانجيل؟

أجبت دون أن أُدرك غاية السؤال: أساس الإنجيل هو يسوع.

قال: إذن، ليس شريعة موسى؟

أدركت ماذا يقصد. لقد لخَّص الربُّ الشريعة في وصيتين: الأولى أن تحب الرب الهك، والثانية أن تحب قريبك كنفسك. وقال إن هذا هو لُب أو جوهر تعليم الأنبياء. فإذا كانت الوصايا كلها قد انجمعت في هاتين الوصيتين، فإن اختبار الإنسان ليسوع ربَّاً ومخلصاً هو اختبارٌ لطريق يسوع، وهو الطريق الضيق، أي طريق المحبة.

لقد أفسدت الأغاني الشعبية الذوق والحس الروحي، وصارت الأشواق نابعة من الجسد ومن العواطف. نعم من الجسد؛ لأن الإنسان الذي ينسى الحياة الأبدية، يحاول أن يجدها -أي الحياة الأبدية- في جسده، ويظن أن الجسد هو الوجود الحقيقي. ولابد أن نعلم كيف تم تزيِّيف الجسد نفسه بالخطية، وكيف أن الموت ضرب كيان الإنسان، فأصبح يرى الخلود والبقاء في الجسد، ومن هنا يجيء رعبُ الموت والخوف من المرض؛ لأن الباقي والخالد قد اهتز عرشه.

لماذا لا تدرس الفصول الستة الأولى من الرسالة إلى الوثنيين؟ سوف تجد فيها سر التحول الذي حدث في سقوط الإنسان.

سادت برهةٌ من الصمت، كانت أطول من الدهر. فقد توقف الكلام عند موضوع بالغ الأهمية، وهو نظرة الإنسان إلى جسده، واعتباره بقاء الجسد هو بقاءٌ أبدي خالد، رغم أنه يتقدم ويشيخ، ولكننا نحارب الشيخوخة، ولا ندري سبباً لها سوى المرض وتقدُّم العمر، مع أنها هي نضوج الإنسان لكي يدخل مرحلة أخرى للحياة الباقية الخالدة.

قال: المحبة الواحدة التي لا تنقسم هي محبة -إذا جاز القول- دخلت عرين الموت والفساد، بل ونزلت إلى الجحيم "من قِبَلِ الصليب". هي محبة تقتحم لكي تشفي، وتجول -كما قالت الأناجيل- في كل قرية ومدينة تفتِّش عن المحتاجين للشفاء.

تأمَّل: محبة الآب للابن هي ذات محبة الآب لنا، وهي ذات محبة الابن لنا، وهي ذات المحبة التي يسكبها الروح القدس.

هل تعرف لماذا لا يمكن للمحبة أن تنقسم؟

هذه ليست مسألة فلسفية؛ لأن الإنجيلي يوحنا قال: "الله محبة". وقال أيضاً: "مَن لا يُحب لا يعرف الله". هذا حكمٌ صارمٌ شديدُ الوقعِ على أي إنسانٍ يدرك أنه

بدون المحبة لا يمكن الاقتراب من الله. الله لا يمكن أن ينقسم؛ لأنه ليس مخلوقاً خاضعاً للتغيير. **محبةُ الله أبديةٌ غير قابلةٍ للتحول، وهي ليست ردَّ فعلٍ لتوبة الإنسان** كما يحلو لبعض الوعاظ عندنا أن يعلِّموا الناس.

تأمَّل معي: محبة لا تنقسم؛ لأنها حياةُ الله، فهي ليست عواطف وإنما الوجود الإلهي -رغم عدم دقة كلمة الوجود؛ لأن "الوجود" خاصٌّ بنا نحن المخلوقات، وربما تعبِّر كلمة "الكائن" عن الله بشكلٍ أفضل- ومع ذلك، فقد دخلت المحبة الإلهية إلى الوجود الإنساني نفسه بالتجسد. دخلت المحبة دنيا الإنسان بما فيها من انقسامات وتحزُّب وحروب وخصام وعداوة تصل إلى حدِّ القتل بسبب انقسام محبة الإنسان وارتباط محبة الإنسان بما يحتاج. ولما كانت الاحتياجات متنوعة، بالتالي تنقسم المحبة حسب تنوع أهداف محبة الإنسان للمال، والعمل، والشهرة، وكل ما يحيط بالإنسان في الحياة الاجتماعية. لكن الثالوث لا احتياجات له، وليس لديه تنوع الطبائع المخلوقة، بل الحياة الواحدة التي نسميها الجوهر الواحد، وجوهر الألوهة هو المحبة؛ لأن "الله محبة".

لقد جرى تقسيم وتبعيض لحقائق هي في الأصل واحدة؛ لأن أصلها واحد، وهو عمل الثالوث. نعمة ربنا يسوع مستعلَنَةٌ في ربنا، ومعطاةٌ بالروح ومصدرها الآب. وهذا لا يقسِّم عمل الثالوث الواحد. لقد كان لديَّ هذا الحس، وصار يقيناً بعد أن درست رسائل القديس أثناسيوس إلى سرابيون عن الروح القدس، وقبل ذلك كتاب ودفاع القديس باسيليوس عن الروح القدس.

إذا استطعنا تجاوز التقسيمات التي زادت في العصر الحديث، استطعنا أن نتكلم عن التدبير بصوابٍ أكبر. أقصد أن موت الرب المحيي على عود الصليب، هو عمل الثالوث، هو استعلان المحبة الواحدة. هكذا تعلَّمنا عندما كنَّا أطفالاً. كان الكِبارُ يسألوننا: مين خلقك؟ وكان الجواب: الله الآب. ومين فداك؟ الله الابن. ومين قدَّسك؟ الله الروح القدس. ومين هو إلهنا؟ هو واحد في ثالوث. وكان رشمُ الصليب

هو طقس الاعتراف بالإيمان بكل ما قِيل عن شرحه عن نزول الابن والانتقال من الشمال إلى اليمين بالروح القدس. نحن لا نقول باسم الواهب أو باسم القوة أو باسم النعمة، بل باسم الآب والابن والروح القدس لأننا نأخذ. والوعي والإيمان ليس بالنعمة، نحن لا نؤمن بنعمة ولا بعطية ولا بموهبة، ولكن نؤمن أولاً بالروح الواهب النعمة، وهو العطية، وهو موزِّع المواهب. مَن يقبل نعمة، ولا يقبل مانح النعمة، هو أشبهُ بلصٍّ أو زانٍ يأخذ ما يريد ويترك الواهب، وينصرف بعيداً عن العاطي. التقسيم الذي يُقال عندنا جاء من عمل الشيطان، ومن أجل خلق فجوات تدخل فيها الفتاوى، ويسود فيها قانون أو قوانين دخلت في عصر غاب فيه الوعي عن أن أساس المسيحية، وأساس الحياة الحقة، هو الرب وليس الناموس أي الشريعة.

أعظم عطايا محبة الرب، هي عطية الجسد والدم في الإفخارستيا، حيث يعطي لنا ذاته ويقول لنا: "مَن يأكلني يحيا بي" (يوحنا ٦: ٥٧). هو الذي يقدِّس، وهو الذي يوزِّع. لقد نطق القداس الغريغوري بهذه الحقيقة العظمى بكل وضوح. **ولكن عندما سادت فكرة سلطان الكهنوت، بدأت أسئلة العقل الذي تربَّى في مدرسة السلطة، فأصبح الكاهن هو الذي يستدعي الروح القدس، والكاهن هو الذي يقدِّس، وغابت نعمة الشركة، فأصبح الكاهن هو الكل في الكل، ولم يعد شريكاً للرب في خدمته، بينما كل ما يعمَلَه الكاهن، إنما يتم بواسطة الصلاة، وبواسطة استدعاء الروح القدس.**

وهنا، عطيةُ المحبة تعود إلى المُحب، محب البشر يسوع المسيح نفسه الذي لا سلطان لأحدٍ عليه. ذبيحةُ المحبة العظمى، سر الشكر هي ذبيحة يقدِّم فيها الرب ذاته لنا، ونحن جميعاً غير مستحقين.

لقد تابعت مأساة د. مجدي وهبه الذي قدَّم تعليم الآباء القائل بأن يهوذا تناول مع باقي التلاميذ، بل غسل له الرب يسوع قدميه كما فعل مع الباقين. ولكن محاصرة محبة يسوع المسيح للخطاة هي التي تسمح "ببهدلة"، نعم "بهدلة" الخطاة،

والتشهير بهم **وتعليم قساوة القلب على أنه قساوة قلب الله الذي لا يمكن تبديل محبته بسبب سلوك البشر**. أنوح وأبكي كثيراً على ما حدث وما يحدث: سرعة الاتهامات وسرعة اتخاذ القرارات التي لا تعبر عن فهم أو إدراك بل تعبر عن سلطة لا تعرف المحبة.

كانت الشمس توشك على المغيب، وكان سكون المساء يزحف، وصلاة عشية لا يمكن ان تُهمل، ولكن الحديث قادنا إلى الأوجاع الحقيقية للكنيسة: إهمال المحبة، وإهمال الثالوث إلهنا الحقيقي، وعدم فهم حقيقة موت الرب يسوع على الصليب، وإنكار سُكنى الروح القدس، وسطحية الكلام عن السرائر. هذه كلها تبدو عقائد، وهي فعلاً عقائد، ولكنها استعلانات المحبة الثالوثية.

مضى يومٌ على الحديث السابق، ولا زالت الكلمات حيَّةً في القلب وفي الذاكرة. دُوِّنَت في نفس ساعة الحديث. التقسيم الذي جاء بخراب ودمار الحياة الروحية؛ لأننا نختار ما نريد، ونترك الأصل: نختار المواهب ونترك الأقنوم.

ماذا عن المحبة؟

المحبة هي حياة الثالوث، وهي شركة الثالوث، وحلول كل أقنوم في الآخر.

مِن الأخطاء العامة عندنا هو أن نظن أن أيَّ عملٍ خاصٍّ بأقنوم، قاصرٌ عليه وحده. **يعني نظن أن تجسد ابن الله هو خاصٌّ بالابن، ولكن الآب أرسل الابن لنا قرباناً وذبيحةً، والابنُ أرسل الروح لنا عطيةً. الإرسالية هي شركة الآب في التجسد؛ لأن أعمال الله لا تنفصل فيها الإرادة والحياة عن العمل ولا عن الشركة.** هذا الانفصال خاصٌّ بنا؛ لأن لنا طبيعةً مركَّبةً من جسد وروح، وهي دائمة التحول حسب المواقف، **وقد نوافق على عملٍ معين دون أن نشترك فيه، ولكن إرسالية الابن ليست مجرد قرار إرادي، بل هي مسرة الآب**، ولذلك قال: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت". **ومسرةُ الآب ليست مجرد قبول أو رضاء، بل شركة في**

الذي أخلى ذاته لكي يعلن أبوة الآب. عندما قال الرب: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠: ٣٠)، حقاً هي وحدانية الجوهر، ووحدانية الجوهر تجعل إرادة الابن هي إرادة الآب، إرادة واحدة متحدة متمايزة بسبب تمايز كل أقنوم، ولكنها متَّحدة بسبب وحدة الجوهر، وبسبب آخر يعبِّر عنه الجوهر الواحد، وهو المحبة الواحدة.

ماذا يحدث لنا عندما ننال لمسةً واحدةً من المحبة الإلهية؟:

قال: تظهر لنا كل الأمور الزمانية على أنها بلا قيمة. كما قال الرسول بولس: "حسبتها نفاية لكي أربح المسيح وأُوجد فيه". وتعلو محبتنا لدرجة أننا نرى الربَّ أهم من الحياة؛ لأن الرب هو الحياة، وأنه أعظم من الوجود كله؛ لأنه هو الوجود كله. ولا يحلو لنا طعامٌ أو شراب أو الجلوس مع الأصدقاء أو السفر أو القراءة، كل شيء، حتى النوم والراحة الجسدية، تظهر لنا صغيرة غير مهمة، ونستطيع أن نحيا بدونها.

نحتمل الإساءة؛ لأننا أدركنا مقدار كرامتنا عند الله، لا عند البشر. نسمع الشتائم ولا نهتم بها، بل لا نرد؛ لأن ما يقوله البشر ليس من مصدر الحياة، أي ربنا يسوع.

تجسد المحبة الإلهية:

عندما تجسد الابن له المجد، استطاع الهراطقة أن يملئوا عقل الكنيسة بموضوع الطبيعتين. بكل حق، الإيمان بالمسيح الإله والإنسان، ليس موضوعاً نجده في كتاب، أو هو فصلٌ من فصول التاريخ الكنسي. **الإيمان بالمتجسد يعني دائماً بالنسبة لي: محبة الله المطلقة التي جعلته "يخلي ذاته ويأخذ صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦)**. هذه الكلمات القليلة كانت موضوع صلاتي في الوحدة لمدة طويلة لا أذكرها، ربما تزيد على سنة. كنت أتوسل الى الرب نفسه أن يكشف لي عمق محبته، وهذا ليس موضوعاً يُكتَب أو يحاصر بالمشاعر والعواطف، ولا حتى بالتأمل. يوجد بُعدٌ غائبٌ، وهو الاتحاد السري

المستيكي، هو وحدتنا مع الرب، وهو اتحادنا به.

انشغلنا عنه، وابتعدنا عنه كثيراً، ولكنه هو كل أشواق الرب يسوع الناريـــة، وهذه ليست عواطف ولا هي مشاعر، هي أنين قلب المخلص لكي يسكن فينا ويحـــل بالإيمان في قلوبنا، كما قال الرسول بولس (أفسس ٣: ١٧)، وهو ما طلبه الرسول أن ننال "قوة الروح القدس في الانسان الباطن"، وبقيـــة الكـــلام ذات دلالـــة: "وأنـــتم متأصِّلون ومتأسِّسون في المحبة (ولاحظ) حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين: ما هو العرض (أي الشمول) والطول (أي السمائي) والعمق (أي النزول الى الجحيم) والعلو (أي الوقوف عن يمين الآب)". كل هذا هو ما يؤكِّده الرسول: "وتعرفوا محبـــة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله" (أفســـس ٣: ١٦-١٩). هكـــذا عشتُ لا أبحث عن هذه المحبة في الكتب، ولا في أي بحثٍ عقلي نظري، بل في قلـــبي، وتمرُّ عليَّ أيام طويلة وأنا أردد كلمات الرسول: "لكي تمتلئـــوا إلى كـــل مـــلء الله"، و"كل"، و"ملء" ليست مجرد كلمات، بل هي إشارات إلى الحقيقة الفائقة التي تعلـــو على الإدراك؛ لأن الرسول يقول في ختام هذا التعليم: "والقادر أن يفعل فـــوق كـــل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا" (أفســـس ٣: ٢٠)، هذا ما هو فوق الإدراك العقلي والنظري!

سألتُ، وقد ظهرت آفاقٌ جديدة بالنسبة لي: إذن ماذا علينا أن نفعل؟

فقال: لا شيء. في البداية كنت أدرس حياة النُّسَّاك، وقـــد قُـــدِّمَت الحيـــاةُ النسكية بشكلٍ مختزل حَذَفَ -عن غير قصد- التسليم الحقيقي للحياة النســـكية، أي "الموت عن العالم"، ولكن الموت الحقيقي عن العالم هو "الصلب مع المسيح"، كما قال رسول الأمم بولس: "مع المسيح صُلِبت"، لذا فإن الاعتكافُ هو ابتعادٌ عن كـــل مـــا يشوِّشُ الفكر. الصومُ هو طلب القوت السمائي، والغذاء الروحي من الله: "الكلمة التي تخرج من فم الله"، كما قال الرب في ردِّه على الشيطان. عدمُ القنية هو عدم الانشغال بما لدينا؛ لأن هذا، أي عدم القنية، يكشف لنا نوع محبة الذات، الذات التي تريـــد أن

تنمو وتمتد إلى ما تملك. السعيُ إلى الصداقة، بل وطلب هذه الصداقة هو في أغلب الأحوال فراغُ القلب. اصطيادُ أخبار الناس والتسلية بخطايا الآخرين وذكرها لكل مَن نعرف، هو قساوةُ قلبٍ لم يعرف بعد غفرانَ الله. وهكذا، حتى الصمت، لا يُفرَض على الإنسان فرضاً، بلْ يسعى إليه القلب؛ لأن صلاة يسوع، أو الصلوات الشخصية، أهمٌّ من أيِّ حديثٍ.

أذكر أنه كنت من شدة التعب، قد غفوت أثناء القداس، وربما كانت هذه رؤيا، ربما كان أحد الأحلام السماوية؛ لأن الله أحياناً يرسل لنا رسالةً عندما يهدأ العقل ويكُفُّ عن التفكير، أن شخصاً وقف أمامي، وكان يشبه أحد الرهبان الذي عبروا إلى الحياة الباقية، وسألني: ما هو هدف حياتك؟ ولم أجد لديَّ ما أقول سوى: المسيح هو هدف حياتي. فقال لي: الرهبنة وسيلة، الايمان وسيلة، الحياة الجسدانية وسيلة، المعرفة بكل أنواعها وسيلة، الصحة وسيلة. لا تخلط بين الوسيلة والهدف لكي تربح المسيح. خليك زي بولس الذي خسر كل الأشياء وحسبها نفاية لكي يربح المسيح. وأنت تحتاج إلى أتون المحبة الإلهية متى حلَّ روح الله في قلبك؛ لأن الروح القدس هو الذي يسكب محبة الله في القلب. وعدت إلى وعيي، أو انتهى الحلم. ومن ذلك الزمان بدأت أغربل حياتي كلها في غربال مانع؛ لكي لا يبقى لديَّ إلا الهدف، وأنَّ كلَّ شيءٍ هو وسيلة.

لو مرت أيام لا أذوق فيها النوم، لا أشعر بالحسرة، بل بتعب الجسد؛ لأن النوم وسيلة. وما دام الهدف هو يسوع، فاليقظة أهم. وحتى الانقطاع عن الطعام، صار وسيلةً، وتلاوة المزامير لم تعد قانوناً، بل ظلت وسيلة. حضور القداس هو وسيلة للشركة، والهدف هو يسوع، هو التناول، والتناول هو تنازُل عن كل ما هو زائد وغير ضروري.

وهكذا نفلِّح الأرض وننتظر المطر والبذرة السماوية من الثالوث القدوس.

عند هذا الحد أدركت أن حوارنا اليوم قد انتهى.